مقامة الزهد للزمخشري

دراسة بلاغية نقدية

إعداد الدكتور

مرعي سليم مرعي أحمد

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

في كلية اللغة العربية بالقاهرة

مجلة
كلية
الدراسات
الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخـــــص

يدور البحث حول إحدى مقامات الزمخشري، وهي مقامة الزهد، من حيث تحليلها تحليلا بلاغيا، للوقوف على نسق كلام الزمخشري، الذي كان لكلامه خصوصيات بنائية، وسمات تصويرية، أظهر باقتدار ما يهدف إلى بيانه، وهو الزهد، الذي جعله عنوانا لمقامته، وقد سلك في بيان موضوع مقامته مسلكا عقليا منطقيا، حيث بدأ بعرض فكرة ترك الدنيا، كما في قوله: يا أبا القاسم: مالك لا ترفض هذه الدنيا رفضا، وتنفض يديك منها نفضا؟ "، ثم أردف ذلك ببيان بما يوجب على المرء الزهد في الدنيا، كما في قوله: "ألم تر كيف أبغضها الله وأبغضها أنبياؤه، ومقتها أولياؤه "، ثم بين بالتفصيل بعد هذا الإجمال هذه الأسباب بعدة طرق بنائية للتراكيب، ممتزجة بالصور البيانية المتنوعة، والمحسنات البديعية غير المتكلفة.

ثم عرض مغبات التعلق بالدنيا، ثم ذكر طريق الخلاص من هذه الفتن، وذلك باللجوء إلى الله تعالى، والتمسك بصراطه المستقيم.

وفي عباراته التزم المشابهة بين كل جملتين، مع التزام السجع والتجنيس في مقامته كلها، كما في قوله: "شهدها مشفوع بإبر النحل، رطبها مصحوب بسُلا النحل "، ليكون في ذلك عون على وصول المعاني إلى ذهن المتلقي بيسر وسهولة.

وقد وظف النظم توظيفا دقيقا، من تقديم وتأخير، وتعريف، وتنكير، وحذف وذكر ..... وكل ذلك مندمج مع الصور البيانية الرائقة الرائعة، ومتناغم مع المحسنات البديعية العفوية.

ومما قوى أسلوب الزمخشري البلاغي اقتباساته من القرآن الكريم، وحديث سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم مما جعل نفسه في المقامة يقترب من نفسه في التفسير.

ويمضي بتسلسل منطقي، مبينا الأدلة على دعواه.

وقد استعان بالبيان القصصي، لكنه لم يورد إلا مغزى القصة، الذي يحمل العبرة والموعظة، التي تقوم دليلا له على وجهة نظره.

كما استعان في بيان مقصده بأبيات من شعره، لما للشعر من وقع نغمي يجدد نشاط المتلقي.

وسوف يتبين ذلك جليا مع تحليل المقامة تحليلا بلاغيا يبين سمت كلام الزمخشري في مقامته، الذي يميزه عن غيره من أصحاب المقامات، من حيث الخصائص البيانية والبنائية والبديعية.

الكلمات المفتاحية: مقامة – الزهد – الزمخشري – نثر

Az-Zamakhshari's Literary Article on Asceticism: A Critical Rhetorical Study

By: Dr. Marʿi Salim Marʿi Ahmad

Assistant Professor of Literary Criticism and Rhetoric at the Faculty of Arabic Language, Cairo

E.MAIL: marey.salim@azhar.edu.eg

مجلة كلية الدراسات الإسلامية

Abstract

This paper studies one of Az-Zamakhshari's literary articles on asceticism, and analyses it rhetorically to demonstrate the structure of his wording. Az-Zamakhshari has a unique structural style and mode of depiction, which he professionally employs to demonstrate the topic of asceticism that is also the title for his literary article. He takes a reasonable logical approach in the article, starting by proposing the idea of shunning this earthly world. He says to one of his friends, "O, Abu Qasim, why do you not reject this world and wash your hands off it?" Then, he carries on to state the reasons that make it necessary for one to renounce worldly pleasures: "Do you not see how God loathes it and so do His Prophets and Saints?" Afterwards, he details those reasons in several structural ways, mingled with figures of speech and unostentatious embellishments. He finally demonstrates the ramifications of clinging to worldly pleasures, and mentions the salvation path which consists in taking refuge with God and observing the righteous way of life.

Az-Zamakhshari uses parallel structures, using rhyming and assonance in all of his literary articles so as to facilitate the reader's access to the intended meanings. He employs versification with precision, structural transposition, definiteness, omission, etc., all blended harmoniously with the exquisite imagery and spontaneous embellishments.

One of the reasons behind Az-Zamakhshari's vivid style is his quoting the Holy Qur'ān and Hadiths of the Prophet (pbuh), the case that makes his style as good as that employed in his exegesis of the Qur'ān. He typically employs a smooth logical sequence of providing evidence for the points he makes. He also makes use of storytelling, stressing the moral values to support his points of view. In addition, he quotes some of his own poetry to support his message. His poetic rhythm serves to stimulate the reader's senses.

All of the above is clearly presented here through a rhetorical analysis of this literary article in our attempt to elucidate the characteristics of Az-Zhamakhshari's style that serve to distinguish him from other authors of this literary genre, particularly with regard to structural, figurative, and aesthetic features.

Key words: literary article – asceticism– Az-Zamakhshari – rhymed prose – assonance

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي خلق الإنسان، علمه البيان، والصلاة والسلام على النبي الأمي العربي العدنان، وعلى آله وصحابته وتابعيهم بإحسان إلى آخر الزمان.

أما بعد: -

فإن فن المقامات من الفنون الأدبية النثرية التي تناولها أدباء العرب ، و لا سيما في العصر العباسي ، و قد كان بديع الزمان الهمذاني (المتوفى عام ٣٩٨ هـ) أول من مهد الطريق وعبده لظهور هذا الفن ، ثم خلفه الحريري (المتوفى عام ٥١٦ هـ) ، و كان أوسع ثقافة ، و أحكم صياغة ، و أقوى تعبيرا ، فوصل بهذا الفن إلى الذروة ، إذ لا نجد أحدا ممن جاء بعده استطاع أن يحلق معه في الأفق الذي صعد إليه ، و بذلك ظل الحريري الأديب الماهر الذي لا يبارى، ولا يجارى في هذا الفن، وكانت مقاماته مضرب المثل في الفصاحة والبيان.

وقد كان للعلامة أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري نصيب من هذا الفن، إذ أسهم فيه بتأليف مقاماته، وشفعها بشرح مختصر لما غمض من ألفاظها.

وقد أنشأها الزمخشري - كما يصرح بذلك في مقدمة مقاماته - تذكرة لنفسه، وردعا لها عن أن تعود لسالف عهدها من الغواية والضلال، فيبدأها بخطاب الذات فيقول:" يا أبا القاسم" وتدور هذه المقامات حول موضوع رئيس، هو الوعظ، وإن كانت تشتمل على مناح اجتماعية وسياسية وغيرها.

ويختلف النسق البنائي لهذه المقامات عما عهدناه لدى بديع الزمان الهمذاني والحريري، فهي تكاد تخلو من النمط القصصي إلا ما ورد في مقامة (أيام العرب) (١)، فهي تشير إلى عناوين القصص دون الأحداث والزمان، والمكان...، بمعنى أنها تخلو من مقومات الفن القصصي ،

(١) مقامات الزمخشري – ط ٢ – دار الكتب العلمية بيروت – ١٩٨٧ – ص ٥٠.

فهي أقرب إلى مفهوم المقام منها إلى مفهوم المقامة، والمقام هو أن يقوم الخطيب بين يدي الخليفة للوعظ والتذكير.

بأنها كانت تنحو منحى الجد في جميعها، فلا نجد في مقاماته هزلا أبدا، ولعل السبب يعود إلى جدية الموضوعات التي طرقها، كما أن وعظه كان صادقا نابعا من القلب فجاءت مقاماته نابعة من القلب إلى القلب، والكلام إذا خرج من القلب وقع في القلب، وإن خرج من اللسان لم يجاوز الآذان.

وتشترك مقامات الزمخشري مع المقامات البديعية في الصنعة اللفظية، ومن خصائص هذه الصنعة ومميزاتها:

١ – الالتزام بالسجع في المقامة كلها.

٢ – انتقاء الألفاظ المنمقة في مستوى الكلمة والعبارات القوية المتينة في مستوى الجملة.

٣ – الإكثار من المحسنات البديعية المختلفة كالجناس والطباق وغيرهما.

٤ – الإكثار من الألفاظ الغريبة، والكلمات النادرة الاستعمال.

٥ – الاقتباس والتضمين من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة والأمثال العربية والحكم والأشعار.

وسوف يتضح ذلك جليا مع الدراسة المفصلة لمقامة الزهد للزمخشري، وهي واحدة من أبرز مقاماته التي تتجلى فيها خصائص أسلوبه، وسمات بيانه.

والله تعالى أسأل أن يقيم القلم، ويثبت القدم، ويجعل العمل خالصا لوجهه الكريم، إنه سبحانه نعم المولى ونعم النصير.

تعريف موجز بالعلامة الزمخشري

اسمه: محمود بن عمر بن محمد بن عمر الزمخشري الخوارزمي.

كنيته: أبو القاسم، و كثيرا ما كان ينادي نفسه بها في بدايات مقاماته(١).

مولده ووفاته:

ولد في زمخشر (قرية كبيرة من قرى خوارزم) سنة ٤٥٦ هـ ، و توفي في جرجانية خوارزم سنة ٥٣٨هـ .

حياته العلمية:

لقد كان الزمخشري في الصدارة من علماء عصره ، شديد الذكاء ، متوقد الذهن ، جيد القريحة ، كثير الحفظ ، إماما في أفانين كثيرة من المعرفة ، عالما متفننا في كل علم ، فقد كان مفسرا ، و فيلسوفا متكلما ، و نحويا بارعا ، و أديبا لامعا ، ناظما و ناثرا ، و خير شاهد على هذا تصانيفه الكثيرة في العلوم الشرعية ، كالتفسير، و الحديث ، و الفقه ، و القراءات ، و علوم اللغة ، كالمعاجم ، و الأدب ، و النحو ، و العروض ، فضلا عن علم الكلام ، و المنطق ، و قد أربت مؤلفاته على الثلاثين ، ترك فيها خلاصة فكره ، و ثمرات عقله ، فكان

فكان رأسا في البلاغة، والعربية، والمعاني والبيان، وله نظم جيد، ومن نظمه مل ورد في رثائه لشيخه أبي مضر النحوي:

وقائلة: ما هذه الدرر التي تساقطها عيناك سمطين سمطين

فقلت هو الدر الذي قد حشا به أبو مضر أذني تساقط من عيني(١)

(١) تنظر ترجمة الزمخشري في سير أعلام النبلاء – الذهبي – ط مؤسسة الرسالة – بيروت – ١٤٢٢ هـ ٢٠١ م جـ ١٥ – ص ١٥١ – ١٥٦ ، و الأنساب – السمعاني (ت ٥٦٢ هـ) تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي – ط مجلس دائرة المعارف العثمانية – حيدر أباد – ط ١ – سنة ١٣٨٢ هـ – ١٩٦٢ م – ص ٢٤٩٧ .

ومن أشهر مؤلفاته تفسير الكشاف، وكتاب (المفصل في النحو)، ومعجم (أساس البلاغة)، وقال ابن خلكان له الفائق في غريب الحديث، وربيع الأبرار، وأساس البلاغة، ومشتبه أسامي الرواة، وكتاب النصائح، والمنهاج في الأصول، وضالة الناشد(٢)

مجلة كلية الدراسات الإسلامية

شعره

ومن مشهور شعر الزمخشري ما رواه أبو المظفر بن السمعاني، قال: أنشدنا أحمد بن محمود القاضي بسمرقند قال أنشدنا أستاذي محمود بن عمر:

ألا قل لسعدى ما لنا فيك من وطر ... وما تطبينا النجل من أعين البقر

فإنا اقتصرنا بالذين تضايقت ... عيونهم والله يجزي من اقتصر

مليح ولكن عنده كل جفوة ... ولم أر في الدنيا صفاء بلا كدر

و لم أنس إذ غازلته قرب روضة ... إلى جنب حوض فيه للماء منحدر

فقلت له جئني بورد وإنما ... أردت به ورد الخدود و ما شعر(٣)

ويبدو أن شعره كان دون نثره، إذ قد وصفه الذهبي بقوله قلت هذا شعر ركيك لا رفيق (٤)

المقامات

المقامة فن من فنون النثر الأدبي، ظهرت في القرن الرابع الهجري، و هي تشتمل على بيان شبيه بالبيان القصصي، إلى حد أن ذهب كثير من الباحثين إلى أن المقامة هي باكورة القصة في الأدب

(١) السابق ج ١٥ ص ١٥٣

(٢) السابق ج ١٥ ص ١٥٦

(٣) السابق جـ ١٥ ص١٥٦

(٤) صبح الأعشى في صناعة الإنشا – القلقشندي جـ – ص ١٢٣

العربي ، و تتضمن مُلَحا و نوادر و عظات ، كان الأدباء يتبارون فيها إظهارا لبراعتهم اللغوية و الأدبية ، و قد عرَّف القلقشندي المقامات بقوله : " هي جمع مقامة بفتح الميم ، و هي في أصل اللغة اسم للمجلس ، و الجماعة من الناس ، و سُمِّيت الأُحدوثة من الكلام مقامة كأنها تُذكر في مجلس واحد ، يجتمع فيه الجماعة من الناس لسماعها "

و تتسم معظم المقامات بأنها أحدوثة ، أو قصة قصيرة ، تعتمد – في أغلب أحداثها – على الخيال ، لا على الحقيقة فهي تعتمد على راوٍ ، و بطل محوري ، و شخصيات خيالية ، وهمية غير حقيقية ، و هي تختلف من حيث الحجم ، فتارة لا تبلغ حد الخبر القصير الموجز ، و تارة تبلغ حد القصة ، أو الحكاية القصيرة ، كما تختلف أيضا من حيث الموضوع ، فنرى البعض منها يتناول قضايا الفساد ، كفساد الحكام ، أو القضاة ، أو رجال الدولة ، أو الفساد السياسي ، أو الاقتصادي ، أو الاجتماعي ، كما كان من موضوعات المقامة الوعظ و الإرشاد و التوجيه .

كما تتسم أحيانا بطابع أدبي ساخر لاذع، وتارة تتسم بلمسات فكاهية تافهة، كما تنطوي المقامات على آيات قرآنية كريمة، وأحاديث نبوية شريفة، وأمثال، وحكم، وتنتظم في مفردات غريبة، قل استعمالها، أو اندثرت، وبهذا تكون النقامة عاملا لإحياء هذه الثروة اللغوية، وتكون مادة أدبية دسمة.

تبدأ المقامات – غير مقامات الزمخشري – بحديث الراوي فيقال في أولها (حدثنا فلان) و يذكر الراوي، و يسرد في حديثه حكاية البطل المحوري الذي يمتاز في أغلب الأحيان بذكائه الحاد، و نضوجه الأدبي، و حنكته في تجارب الحياة، و لسانه الذرب الذي يفتن السامعين، و شخصيته الماكرة الخادعة التي لا تنكشف إلا في نهاية المقامة.

والمقامة التي تكون بمثابة الحكاية القصيرة فهي إذن لها بداية ولها نهاية، وفيها شخوص محورية وهامشية، ولها بُعد مكاني وبُعد زماني، وفيها عقدة تنعقد وتتأزم، وحلٌّ يأتي في نهايتها.

مقامات الزمخشري

لم تكن مقامات الزمخشري على نسق مقامات بديع الزمان الهمذاني وعن مقامات الحريري من حيث البناء التركيبي وموضوع المقامات، ولم يكن فيها راوٍ ولا هي على نسق القصة القصيرة كما هو مشتهر لدى أهل المقامات.

و قد أنشأ الزمخشري مقاماته تذكرة لنفسه و ردعا لها عن أن تعود إلى سالف عهدها من الغواية و الضلال، و يبدأها بخطاب الذات بقوله (يا أبا القاسم)، و هذه السنة الأسلوبية تتكرر في جميع المقامات باستثناء مقامة واحدة هي مقامة (التسليم)(١)

وتدور هذه المقامات حول موضوع رئيس، وهو الوعظ، ولإن كانت تنطوي أيضا على مناحٌ سياسية واجتماعية وغيرها.

و يختلف النسق البنائي لهذه المقامات عما عهدناه لدى بديع الزمان الهمذاني و الحريري ، فهي تكاد تخلو من النمط القصصي إلا ما ورد في مقامة (أيام العرب)(٢) فهي تشير إلى عناوين القصص دون أن تسّبُر أغوارها ، فلا نجد فيها شخوصا تتحرك ، و لا أحداثا و لا زمانا ، و لا مكانا ، بمعنى أنها تخلو من مقومات الفن القصصي مما يجعلها تقترب من مفهوم (المقام) أكثر من مفهوم المقامة ، و المقام هو أن يقوم الخطيب بين يدي الخليفة للوعظ و التذكير ، كما أنها تختلف عن مقامات سابقيه كالحريري و الهمذاني بأنها كانت تنحو منحى الجد في جميعها ، فلا نجد في مقاماته هزلا ، و لعل السبب يعود إلى جدية الموضوعات ، التي طرقها ، كما أن وعظه كان صادقا نابعا من القلب ، فجاءت مقاماته رسالة من القلب إلى القلب .

---

(١) مقامات الزمخشري: ص ٥٠

(٢) مقامات الزمخشري – مصدر سابق: ص ٢٥٥

وتشترك مقامات الزمخشري مع المقامات البديعية في الصنعة اللفظية، و من أهم سمات هذه الصنعة و مميزاتها: -

١ - الالتزام بالسجع في المقامة كلها.

٢ - انتقاء الألفاظ المنمقة في مستوى الكلمة، والعبارات القوية في مستوى الجملة.

٣- الإكثار من المحسنات البديعية المختلفة كالجناس والسجع والطباق وغيرها.

٤ - الإكثار من الألفاظ الغريبة، والكلمات النادرة الاستعمال.

٥- الاقتباس والتضمين من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة والأمثال والحكم والأشعار.

أهداف الزمخشري من مقاماته:

يهدف الزمخشري من هذه المقامات إلى جملة من الأغراض منها: -

١ - تذكير نفسه وردعها عن العودة إلى ما كانت عليه في سالف عهدها، (كما جاء في خطبة كتابه)، فقد كان يأخذ نفسه بالشدة حتى تكون توبته نصوحا، كما كان يعظها ويذكرها برحمة الله تعالى ورضوانه.

٢ - حض القارئ على العمل بما فيها، و لذا نجده في كل مقاماته يتجه بكل ما أوتي من قوة إلى الحض على عمل الخير الذي يرضي الله، و الابتعاد عن زخارف الدنيا و ملذاتها الزائلة التي لا تساوي شيئا إذا قيست بنعيم الآخرة الذي لا يزول.

٣ - حث القارئ على الانتباه إلى طريقة صياغتها، وأسلوب فصاحتها وبلاغتها حتى يفيد من ذلك في محاكاة ذلك الأسلوب.

٤ - الإعلان الواضح أمام الأمة والأئمة عن اعتزاله سلاطين عصره، وحكام زمانه، والإقلاع عن مدحهم والوقوف على أبوابهم، لالتماس العطايا والهبات، واستثمار الوقت بما هو خير كالعمل الصالح، والعلم النافع، لذلك نجده في آخر مقاماته يتخذ على نفسه عهدا بأن

يتفرغ لتعلم القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، وما انبثق عنهما من علوم، وما يدور في فلكهما من معارف.

مقامة الزهد (١)

من أبرز مقامات العلامة الزمخشري مقامة الزهد، وفيها يخاطب الزمخشري نفسه، ويعظها بالزهد في الدنيا فيقول: -

" يا أبا القاسم: ما لك لا ترفض هذه الدنيا رفضا، ولا تنفض يديك من طلبها نفضا؟

ألم تر كيف أبغضها الله وأبغضها أنبياؤه، ومقتها أولياؤه لولا استيجابها أن تكون مرفوضة لوزنت عند الله جناح بعوضة. إن راقك رُواؤُها الجميل فما وراءه مُشَوَّه. ما هي إلا سُمٌّ ذُعاف بالعسل مُمَوَّه. منغَّصة المسارِّ لم تخلُ من أذى ، مطروقةُ المشاربِ لم تصفُ من قذى .مع كل استقامة فيها اعوجاج ، و في كل دَعَةٍ من المشقَّة مزاج .شهدُها مشفوعٌ بإبَرِ النحلِ ، رُطَبُها مصحوبٌ بسَلا النخل .أمام الظفر بغنيمتها الاصطلاء بنار الحرب ، قبل اعتناق سَبْيِها معانقة أبناء الطعن و الضرب .إذكُر المَرْوانيَّ و ما مني به من خطَّةٍ على رأسه مصبوبة، حين غُصَّت بحبة الرمان حُبابتُه المحبوبة .ثم هبها مُروَّقةَ المشارب ، مصفقةً من الشوائب ، قد صَفَت لصاحبها كل لذة ، و أظلته سحابة اللهو هاطلة مُرِذَّة .أما يكفي تيقن المسرور بزوال ما هو فيه منغِّصا لسرورها ، و زاجرا للعاقل أن يلْوِيَ على غرورها.؟ بلى إن نزل اللبيبُ على قضية لُبِّه إن دعاه داعي الشهوة لم يلبِّه .و هيهات ، إن مدعُوَّ الهوى لمجيب ، و إن سَهْمَ دعوة الداعي لمصيب .اللهم إلا عبدا بحبل الله يعتصم ، و يتمسك بعُرْوَتِه التي لا تنفَصِم .

طوبى لعبدِ بحبل الله معتَصَمُه ... على صراط سويٍّ ثابتٍ قدمُه

(١) الزهد في اللغة : الإعراض ، و الشيء الزهيد : القليل ، معجم مقاييس اللغة – ابن فارس جـ ٣ ص ٣٠ هذا و لم ترد المادة في القرآن الكريم إلا في موضع واحد قوله تعالى " و كانوا فيه من الزاهدين " من الآية ٢٠ – سورة يوسف

رثِ اللباس جديدِ القلبِ مُستَـــترِ — في الأرضِ مُشْتَهِرٌ فوقَ السما سِمُه
إذا العيـون اجْتَلَتــــهْ في بَذَاذَتِـــه — تعلو نواظـــــرُها عنه و تَقْتَحِمُه
ما زال يستَحّقــرِ ُ الدنيـــا بهمته — حتـى تَرَقَّـــتْ إلى الأخرى هِمَـمُه
فذاكَ أعظم من ذي التـــاجِ متَّكِئا — على النَّـمارِقِ مُحْتَفَّـــا به حَشَمُه (١)

مناسبة العنوان للمقامة:

استُعْمِلَتْ كلمة (مَقَامَـة) في العصرـ الجـاهلي – إلى جانـب معانيهـا الأخـرى- بمعنـى: المجلس، وكذلك كان معناها في العصر الإسـلامي، ثـم تطـور معناهـا فاسـتعملت بمعنـى المحاضرة (٢) ومن هذا المنطلق كان الفن الأدبي الذي اشـتهر في العصرـ العبـاسي، وهـو فـن المقامات، فهي أقرب ما تكون إلى معنى المحاضرة.

وأما الزهد: فهو بمعنى ترك الشيء، والإعراض عنه لاستقلاله واحتقاره، وارتفـاع الهمـة عنه (٣)

وقد دارت معظم عبارات المقامة في إطار هذا العنوان، لتجلية صور الزهد في نفسه، ونفس مخاطبه، كما سيتضح من خلال الدراسة.

الاستهلال:

استهل الزمخشري مقامته بندائه نفسَه قائلا: " يا أبا القاسم " مُجَرِّدا مـن نفسـه مخاطبـا

(١) مقامات الزمخشري – مصدر سابق – ص ٢٥٥

(٢) فنون الأدب العربي – الفن و القصص – المقامات – د شوقي ضيف – ط ٣ – دار المعارف بمصر ص٥٦

(٣) جامع العلوم و الحكم – ابن رجب الحنبلي – ص ٢٧٣

يوجه له النداء مبالغة وتوسعا في الكلام على عادة شعراء العرب [١]

ولعل السر الكامن في اختياره نداء نفسه بكُنْيَته.. تبركه وتفاؤله بموافقة كنيته كنية رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ كانت كنيته أبا القاسم، وأيضا ليزجر نفسه عن المخالفات، إذ لا ينبغي لمثل من تكنى بهذه الكنية الشريفة أن يقع فيما يغضب أبا القاسم صلى الله عليه وسلم، والذي يقوي هذا الجانب أن ذكر هذا النداء بهذه الكيفية قد تكرر في جميع مقامات الزمخشري – رحمه الله تعالى –.

و لم يكن التجريد بدعا من الزمخشري، و إنما اعتاده كثير من الشعراء من خطاب نفسه بهذا الأسلوب، و كأنه يوقظ رجلا غيره من غفلاته، و يطلب إقباله عليه، فهذا أسلوب إنشائي مراده إيقاظ النفس من غفلتها، و تحذيرها من الوقوع في المخالفات، و الإرشاد لنفسه، و لا يمنع مانع من أن يكون إرشادا لغيره في صورة إرشاده لنفسه، أو مع إرشاده نفسَه.

وفي ذلك تنبيه للمخاطبين ليصغوا إلى ما سيلقيه بعد هذا النداء. وهذه براعة في الاستهلال إذ إن قضية الزهد في الدنيا قضية تعني كل ذي لب، ولهذا فهي بحاجة إلى إيقاظ النفوس لها.

ثم نراه بعد ندائه نفسه يواصل الحديث إليها بطريق التجريد، مستفهما استفهاما إنكاريا توبيخيا فيقول: " مالك لا ترفض هذه الفانية رفضا؟ وتنفض يديك من طلبها نَفْضا؟ " يوبخ نفسه لحرصها على متاع الحياة الدنيا ، و تعلقها بمتاعها الفاني ، لذا نراه يحذف لفظ (متاع الحياة الدنيا) ، إذ التقدير (مالك لا ترفض متاع الحياة الدنيا الفانية رفضا) فهنا إيجاز بالحذف دعى إليه مقام ضيق الزمخشري بهذه الحياة الدنيا الفانية ، و يكتفي بأن يعبر عنها بصفتها " الفانية " ، ليذكّر نفسه و غيره بأشهر صفة من صفات الحياة الدنيا ، و هي صفة

---

(١) التجريد: من أقسامه مخاطبة الإنسان نفسه ، و ذلك بأن ينتزع الإنسان شخصا آخر يوجه الخطاب إليه يقول ابن الأثير في تعريفه التجريد " فإن أصله في اللغة من جردت السيف إذا نزعته من غمده ، و جردت فينا إذا نزعت ثيابه – المثل السائر ص ١٦٦

الفناء ، و كأن الدنيا ما هي إلا " فانية " ذلك بأن الفناء يطارد كل ما في الدنيا ، و كل من فيها ، و هذا سر حذف (متاع الحياة الدنيا) ، و التعبير عنها بصفتها الظاهرة ، و المميزة لها ، و هي صفة الفناء ، و هي رغم شدة ظهورها أمام الجميع فهم عنها غافلون ، و هذا الاستفهام بهذه الصيغة (مالك لا تفعل كذا ؟) وارد في القرآن الكريم في مواضع عدة كما في ٠ قوله تعالى :" قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَالَكَ لَا تأمنا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ١١ " سورة يوسف، و قوله سبحانه :" وَتَفَقَّدَ الطير فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ٢٠ " سورة النمل ، و إن كان كل استعمال ملائما لسياقه الذي ورد فيه إلا أننا نستطيع أن ندرك أن الزمخشري رحمة الله تعالى عليه متأثر بالأساليب البنائية لتراكيب القرآن الكريم .

وللمفعول المطلق في قوله " مالك لا ترفض الفانية رفضا " تأكيد للعامل أي للفعل " ترفض " إذ إنها لكونها فانية فليس حقها إلا أن تُرفَض رفضا أكيدا، وليس لها غير ذلك.

ويزيد هذا الأمرَ المؤكدَ تأكيدا هذا العطف الذي سببه التوسط بين الكمالين لاتفاق الجملتين الداخلتين في إطار الاستفهام، مع وجود الجامع، وذلك حيث عطف على جملة " مالك لا ترفض الفانية رفضا " جملةَ " ولا تنفض يديك عن طلبها نفضا " وأن معنى الثانية مشترك مع معنى الأولى في توكيد وبيان وتصعيد معنى التخلي عن الدنيا.

و التعبير بنفض اليدين من الشيء تعبير مجازي عبر عن ترك الشيء بكراهية له بنفض اليدين من الشيء المستقذر ، و هذا من قبيل الاستعارة التمثيلية ، فالزمخشري يحشد وسائل التعبير، و ينوِّع بينها – من حقيقة و مجاز – حول معنى ترك الدنيا ، ليسد باب الأمل في متاعها أمام نفسه ، و أمام من يسمعه .

ويأتي البديع ليتمم ويدقق المعنى ... حتى تتلقاه نفس المخاطب بنفس درجة تركيزه عند المتكلم، فبين " ترفض.... رفضا " و " تنفض ...نفضا "

فهذا الجناس بين " ترفض ... رفضا " و " تنفض ... نفضا "جناس دقيق ، و الملاحظ

أن الجناس هنا ليس متكلفا ، و إنما هو مكمل للمعنى و شافع له . ثم هذا المزج بين السجع والجناس بين " رفضا " و " نفضا " ليجعل من الفاصلتين نغما رائقا تهش النفس له وتتلقف المعنى عذبا سلسبيلا.

وهذا التشابه في البناء التركيبي بين الجملتين.. حيث تبدأ الجملة باستفهام إنكاري ظاهر في الأولى، ومقدر في الثانية، ثم يتبع ذلك فعل مضارع منفي يفيد التجدد والحدوث شيئا فشيئا ليدل على تعدد فتن الدنيا وتجددها، وهذا بحاجة إلى تجديد اليقظة كلما تجددت فتنة من فتنها. ثم نرى متعلقا بالعامل في الجملتين كليهما، نرى صفة المفعول به " الفانية " في الجملة الأولى، وهو مقدم على المفعول المطلق " رفضا " ليبادر نفسه وسامعيه بالتحذير من فنائها، ثم يأتي المفعول المطلق " رفضا " ليؤكد عامله، وفي الجملة الثانية نجد العامل الواقع في حيز الاستفهام المدلول عليه بما ورد في الجملة الأولى والتقدير (وما لك لا تنفض يديك عن طلبها نفضا " لنرى أيضا أن العامل فعل مضارع له متعلقان، الجار والمجرور " عن طلبها " المقدم على المفعول المطلق " نفضا " الذي يؤكد عامله .... ترى الجملتين وكأنهما قد وُزِنتا بميزان نغمي دقيق غير متكلف، وهذا يحمل دقة واتزان عقل الأديب يرحمه الله تعالى.

ثم يأتينا الفصل بين العبارتين، بسبب شبه كمال الاتصال، لتبين لنا العبارة الثانية، المفصولة عن سابقتها سببَ هذا التحذير شديد اللهجة، فيقول مدللا على ما قاله في العبارة السابقة: " ألم تر كيف أبغضها الله، وأبغضها أنبياؤه؟، ومقتها، ومقتها أولياؤه"، لتكون هذه العبارة جوابا عن سؤال مقدر أثاره معنى العبارة السابقة، أي أن السبب في هذا التحذير من الدنيا أن الله تعالى أبغضها ومقتها هو وأنبياؤه وأولياؤه.

نلاحظ تنوع أساليب الإيقاظ النفسي، ففي هذا المقطع المكوَّن من جملتين - كما كان المقطع الأول مكونا من جملتين - نري أنه يبدأ باستفهام، لكنه من نوع آخر غير الاستفهام في جملتي العبارة الأولى.. الاستفهام ههنا أفاد التقرير، ليرد السامع إلى نفسه، ليتدبر ويستنبط، ليكون

أكثر اقتناعا بالفكرة المطروحة عليه، وهي العزوف عن الدنيا.

وظاهر أن الزمخشري رحمه الله متأثر بأسلوب بناء الاستفهام في بعض سياقات القرآن الكريم، في مثل قوله تعالى: " أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ١ " سورة الفيل. وفي هذا الأسلوب يستحضر البناء صورة المعنى في الذهن، بورود الفعل المضارع (ترى)، وكأن الأمر المستفهم عنه حاضر، ليس بينه وبين المخاطب إلا أن يفتح عينيه ليبصره،

وأن هذا الأمر البارز للعيان، وهو بغض الله للدنيا، وبغض أنبياءه لها ... قد ورد في إطار مؤكد بـ " إن " وهي أمُّ باب التوكيد " أن الله أبغضها "، كما شفع هذا التأكيد بإسمية الجملة، لفظ الجلالة " الله "، ثم ساق المسند " أبغضها " في صيغة الماضي، ليدل على تحقق الوقوع، ثم أعاد ذكر المسند " وأبغضها أنبياؤه"، تصريحا في مقام كان يمكن فيه الإضمار، لتقدم ما يدل عليه في قوله: " أن الله أبغضها ".. كل ذلك يفيد مزيدَ عناية بتقرير معنى بُغض الله تعالى للدنيا في ذهن سامعه، وقد عطف " أنبياؤه "، ليذكر بحال بُغض الأنبياء – عليهم السلام – للدنيا، لتكون فيهم القدوة للناس في بغضها، وفي كل أمر أرسلهم الله تعالى به.

وببناء تركيبي مشابه يعطف الجملة الثانية: " ومقتها ومقتها أولياؤه "، يُلْحَظُ أن الجملتين خبريتان، وبينهما جامع فوصل بينهما، وعطف المقت على البغض، – وهما بمعنى قريب –، ليفيد توكيدا على توكيد، وأولياؤه هم أنبياؤه، ومعهم المتقون، ليوسع دائرة التوكيد، ويركِّزَه في ذهن السامع.

والاستشهاد بمقت الله تعالى، وبغضه هو وأولياؤه وأنبياؤه للدنيا، ليوطد السبب في شدة تحذيره من الدنيا.

وبين " أنبياؤه " و " أولياؤه " سجع مطبوع، وجناس رائق، واجتماع هذين المحسنين البديعيين معا في موطن واحد يزيد الأسلوب روعة وجلالا.

.و لبيان سبب أن الدنيا مرفوضة يقول في العبارة التالية ، و التي تتكون من جملتين أيضا ،

و قد وقعتا في حيز الشرط ، بعد (لولا) .

يقول الزمخشري: " و لولا استيجابها أن تكون مرفوضة لوزنت عند الله جناح بعوضة"، و " لولا " يقول عنها علماء النحو أنها أداة شرط تفيد امتناع الجواب بسبب وجود الشرط، فامتنع أن تزن الدنيا عند الله جناح بعوضة لوجود كونها مستوجبة أن تكون مرفوضة، أي أنها تحمل في طياتها عواملَ بُغضها، و أسباب رفضها.

وهذا جيد من الإمام الزمخشري في الحِجاج عن فكرته، وكأنه يقدم الدعوى ويقيم الدليل عليها، وفي ذلك من إقناع المخاطب القدر الكبير، كما أن اتساق الفاصلة بين نهايتي الجملتين " مرفوضة " و " بعوضة " وما في ذلك من سجع مطبوع، يضفي على المعنى بواسطة اتساق النغم ما تتلقاه النفس بارتياح، يمكِّن لديها المعنى خيرَ تمكن.

والذي يضفي على أسلوب تلك العبارة قدرا كبيرا من الجمال والجلال... ما فيها من اقتباس من الحديث النبوي الشريف، من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء"(١)

ويلحظ أن الجملتين متوازنتان من حيث البناء التركيبي، ومتقاربتان في عدد الكلمات، وقد كونتا معا فعل الشرط وجواب الشرط ل " لولا".

وفي العبارة التالية يفصِّل ما أجمله في العبارة السابقة، والتفصيل بعد الإجمال وسيلة من وسائل البيان والإيضاح، أي أن من الأسباب التي استوجبت الدنيا بها أن تكون مرفوضة ما سيفصل القول فيه في العبارات التالية.

ويبدأ عبارته بقوله: " إن راقك رُواؤُها الجميل فما وراءه مُشَوَّه، ما هي إلا سُمٌّ ذُعَافٌ(٢)

(١) سنن ابن ماجة رقم ٣٣٣٤ و صححه الألباني

(٢) الذعاف و الزعاف: السم الذي يقتل سريعا .. لسان العرب مادة ذعف وزعف.

بالعَسَلِ مُمَوَّه "

هذه العبارة بيان تفصيلي لما ورد في عبارته السابقة، و لأجل ذاك جاءت مفصولة عن العبارة السابقة و هي قوله : " و لولا استيجابها أن تكون مرفوضة لوزنت عند الله جناح بعوضة " ،

هذه العبارة مكونة من جملتين: الأولى شرطية مصدَّرة ب " إن " التي تدخل على الشرط إذا كان محتملا، غير محقق الوقوع، ليدل بذلك على أن رُواءَها قليل، غير محقق الوقوع إلا قليلا.

يقول: " إن راقك رواؤها الجميل فما وراءه مشوَّه " و يطالعنا الجناس في قوله: " رواؤها " و " وراءه "، و الطباق فيما بين كلمتي " الجميل " و " المشوَّه "، و هو بذلك الطباق يحدث موازنة في نفس السامع بين جمال روائها و تشويه ما وراءه، و أيضا الجناس فالرواء لا يكاد يتم لطالب الدنيا إلا و يفجأه ما وراءه، و هذه مقدرة بلاغية عظيمة يقتدر بها الزمخشري على أن يحرك المعاني بواسطة البديع لا أن يوقفه على أنه مجرد زينة لفظية.

وتأتي الجملة التالية مفصولة عن سابقتها، لوقوعها موقع الجواب عن سؤال مقدر أثاره معنى الجملة السابقة " ما هي إلا سمٌّ ذعاف بالعسل مموَّه "(١)

وهنا نرى القصر بالنفي والاستثناء، الذي يواجه به الأمر المستغرَب، الذي يدفعه المخاطب، الذي يضع كل آماله في الدنيا، ليقول له إن الأمر على عكس ما تتوهم، إذ ليست الدنيا إلا كهذا السم المجْهِزِ على من يتجرعه.

وهنا نرى القصر بالنفي والاستثناء، الذي يواجه به الأمر المستغرَب، الذي يدفعه المخاطب، الذي يضع كل آماله في الدنيا، ليقول له إن الأمر على عكس ما تتوهم، إذ ليست الدنيا إلا

(١) المموه أصله أن يطلى الحديد بماء الذهب حتى يُظَن أنه ذهب ، ثم صار مثلا في كل شيء مزور ... أساس البلاغة للزمخشري مادة (موه)

كهذا السم المجْهِزِ على من يتجرعه.

وهنا يسهم التشبيه البليغ إسهاما كبيرا في بناء الفكرة، فيخرج الدنيا عن جنسها، ويدخلها في جنس السُّم الذُّعاف، ليجردها تجريدا تاما من كل خير، ويثبت أنها سوء قُصارها.

و فيما بين " مشوَّه " و " مُمَوَّه " سجع تهش له النفس، و تحرص على فهم المعنى المراد من خلاله، كما أن بين الكلمتين جناسا ناقصا مطبوعا، أضفى على المعنى خِلابة و جمالا(١).

وفي العبارة التالية نرى فنا من فنون البلاغة، يلجأ إليه الأديب حينما يريد تجديد نشاط السامع، لاستقبال ما يريده المتكلم لأهميته عنده، وهو أسلوب القطع والاستئناف، حيث يحذف المسند إليه ليوهم السامع أنه سيأتي بأمر جديد، ثم يستأنف أوصافا لما كان يتحدث عنه أولا، لما يراه الأديب من أهمية لهذا الحديث، ولهذه الصفات المستأنفة، فيجدد لها نشاط السامع بهذا القطع والاستئناف.

يقول الزمخشري مستأنفا صفات للدنيا يريد أن يركِّز اهتمام السامع بها، لأهميتها عند المتكلم: " منغَّصَة المسار، لم تخل من أذى، مطروقة المشارب لم تصف من قذى "

و في هذه الصفات يواصل الزمخشري وصفه للدنيا، بما يبرر رفضها، و نفض اليد منها بنفس أسلوب الحذف الذي يفيد القطع والاستئناف، فيقول: " منغَّصة المسار لم تخل من أذى" أي الدنيا منغصة (٢)المسار ، هنا نراه يشخص الدنيا و يعطيها قدرة التنغيص بطريق الاستعارة بالكناية، فأبرز (الدنيا)، و كأنها عدو يكدِّر على الناس صفو حياتهم.

---

(١)عرَّف ابن المعتز التجنيس بقوله: " أن تجيء الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر و كلام ، و مجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها " - البديع ص ٢٥ ، و السجع: توافق الفاصلتين من النثر على حرف واحد ، و هذا هو قول السكاكي " السجع في النثر كالقافية من الشعر " – البديع ص ٣٢

(٢) المنغصة: مكدرة ، و نغص عليه حياته: كدرها – المعجم الوسيط مادة(نغص)

وفصل جملة " لم تخل من أذى " لكمال الاتصال، إذ قد وقعت موقع البدل من قوله: "منغصة المسار ".

ودخول حرف الجر " من " على النكرة " أذى " يفيد الكثرة، أي أن الدنيا مليئة بالأذى الكثير، وهو ما يدفع لتوقيها، والزهد فيها.

و يواصل أوصاف الدنيا المنفرة عنها فيقول : " مطروقة(١) المشارب ، لم تصفُ من قذى " ، وهذه الجملة متوازنة البناء مع سابقتها من حيث الألفاظ و المعاني ، فهاتان جملتان : الثانية منهما مفصولة عن الأولى ، لوقوعها بدلا منها ، أو عطف بيان عليها ، و هاتان الحملتان الأخيرتان يكوِّنان عبارة مفصولة عن العبارة الأولى ، لوقوعهما بمثابة التوكيد منها ، و كل أوصافه تدور حول مثالب الدنيا ، ليزهِّد فيها ، فهي و إن كان فيها بعض الأمور المحببة لطالبيها ، فإن تلك الأمور " مطروقة " أي لا قيمة لها ، لسبق خوض الناس فيها ، و قد عبر عن ذلك بالكناية في قوله : " مطروقة المشارب " لم تصف من قذى" ، و هذه العبارة متزنة تماما مع العبارة السابقة : " منغَّصة المسار .....

ويحرص الزمخشري على مراعاة الفاصلة التي تحدث سجعا مرضيا فنرى " أذى " و " قذى "، وكما كانت " أذى " نكرة مسبوقة ب " من ف"قذى " أيضا كذلك.

ويصاحب السجعَ جناسٌ ناقصٌ، يكون كأنه لم يُفِد، مع أنه أحسن الإفادة، ووفَّاها.

ويكرر هذا المعنى، ويُلِح عليه بعبارة أخرى، مكونة من جملتين قصيرتين متوازنتين، فيقول: " مع كل استقامة فيها اعوجاج، و في كل دَعَة مع المشقة مِزَاج " (٢)

---

(١) يقال: ماء طرق و مطروق أي و هو الذي طرقته الدواب و خاضته و بالت و بعرت فيه و منه قولهم : هذا معنى مطروق أي ألمَّ به غير واحد – أساس البلاغة للزمخشري مادة طرق

(٢) المزاج: ما يمزج به الشيء أي يخلط – لسان العرب مادة (مزج)

نرى هنا لونا جديدا من ألوان البناء التركيبي ، يقوم على تقديم ما حقه التأخير ، حيث قدم متعلق الخبر (الظرف و ما أضيف إليه) على المبتدأ ، ففي الجملة الأولى "مع كل استقامة فيها اعوجاجٌ " نراه يسلط أضواء العناية و الاهتمام على متعلق الخبر المقدم " مع كل استقامة " ، ليحذر من اغترار المرء بما يظنه استقامة ، و لا يدقق النظر ليبصر ما في هذه الاستقامة من اعوجاج ظاهر و عميق و شامل لكل استقامة وُجدت في الدنيا ، لا تكون صافية المشارب ، و إنما يكدرها هذا الاعوجاج الأليم الملازم لكل استقامة ، و لفظ " كل " و ما يفيده من عموم و شمول ، و كون " اعوجاج " نكرة هذا يشفع الدلالة على العموم ، و يؤكدها ، و قوله : " فيها " يركز الحديث حول الدنيا دون الآخرة .

و في التعبير بقوله: " في كل استقامة فيها اعوجاج " تصوير بياني مجسد لأحوال الدنيا ، بطريق الاستعارة التمثيلية التي أبرزت هذه الأحوال غير المنتظمة في الدنيا ، في صورة العُود الذي لا تخلو استقامته من اعوجاج ، يصاحب كل استقامة في العُود .

ويصل الجملة الثانية: " وفي كل دعة من المشقة مزاج " بالجملة الأولى " في كل استقامة فيها اعوجاج "، لما بين الجملتين من توسط بين الكمالين مع وجود الجامع المعنوي، إذ إن الجملتين متفقتان في الخبرية، وهذا يفيد أن الدنيا تجمع بين اعوجاج كل مستقيم فيها مع المشقة في كل دَعَة.

و بين الجملتين تشابه في نفس طريقة البناء التركيبي، على تقديم متعلق الخبر على المبتدأ النكرة قدم في الأولى متعلق خبر المبتدأ النكرة " في كل استقامة " على الابتداء بالنكرة " اعوجاج " ليقوِّي التحذير من الاغترار بمباهج الدنيا بتقرير أن جميعها معوَجٌ ، و كذلك الأمر في الجملة الثانية حيث قدم متعلق الخبر " في كل دعة " على المبتدأ المؤخر " من المشقة مزاج " ليؤكد التنبيه على أن الدَّعة في الدنيا لا تسلم من المشقة التي تمازجها و تقارنها ، و لا تنفك عنها .

وفي تنكير المبتدأ المؤخر معنى الكثرة غير المحدودة لكل من الاعوجاج، و المشقة الممتزجة بكل دعة في الدنيا.

وتنتهي كل جملة بفاصلة سجعية رائقة " اعوجاج " و " مزاج " (١) كي يسهل تلقي الألفاظ، وفهم المعاني.

وجعْل المشقة ممتزجة بالدعة من أروع التصوير البياني، وذلك بطريق الاستعارة التصريحية في " مزاج "، أو المكنية في كل من " الدعة " و " المشقة "، حيث إن الاستعارة المكنية قد أبرزت" كلا من " الدعة " و " المشقة " في صورة الشيئين الذين يمتزجان.

و يواصل الزمخشري بناءه التركيبي الدقيق المصاحب للصورة البيانية المجسدة ... فيقول : " شَهدها مشفوع بإبر النحل ، رُطبُها مصحوب بسُلاء النخل" نراه يصور الدنيا ، و كأنها خلية نحل ، يصاحب شهدَها إبرُ النحل تلدغ مُشتارَ هذا الشهد ، فلا يكاد يهنأُ بحلاوة الشهد حتى تؤلمه إبر النحل ، فلا يهنأ بشهدها خالصا مما يؤلمه ، و هي استعارة تمثيلية ، و هذه جملة خبرية : " شهدها مشفوع بإبر النحل " ، عطفت عليها جملة خبرية أخرى ، و هي قوله : " رُطبُها مصحوب بسُلاء النخل "(٢)، و الدنيا في هذه الجملة نخلة يصحب رطبَها شوكُها ، ولها نفس بناء الجملة السابقة ، و نفس طريقة التصوير فيها ، وإن اختلفت أدوات الصورة ، و قد عطفت الجملة الثانية لوصلها بالجملة السابقة ، والجملتان خبريتان ، و بينهما جامع معنوي يبرر العطف بين الجملتين ، للتوسط بين الكمالين مع وجود الجامع المعنوي ، و هذا يفيد أن الدنيا تجمع الألم و اللذة في صور متنوعة .

ويلحظ أن الزمخشري يلح على معنى الزهد في الدنيا إلحاحا شديدا، وذلك ظاهر في تصويره لهذا المعنى بصور متعددة، ويحشد لذلك من البناء التركيبي والتصوير البياني ما

---

(١) المراد بالمزاج : ما يمزج به الشيء – لسان العرب – مادة (مزج)

(٢) السُّلاء : شوك النخل – أساس البلاغة – مادة (سلا)

استطاع إلى ذلك سبيلا.

والدنيا كما كانت في تصوير الزمخشري شهدةً مشفوعةً بإبر النحل، ونخلةً يصاحب رطبَها سُلا النخل، فهي في هذه المرة معركة، دائر رحاها، بكَرِّها وفرِّها، فيها بجانب الغنيمة المخاطرة بالنفس والمال، و بجانب التمتع بسبيها مخاطرة لقاء الفرسان و الضرب.. يقول: " أمام الظفر بغنيمتها الاصطلاء بنار الحرب، قبل اعتناق سبيها معانقة أبناء الطعن والضرب "

يلحظ هنا أن صعوبتها لا تتأخر عن ثمرتها، و إنما تتقدمها، فإن الحرب تتقدم على الغنيمة، و معانقة أهل الطعن و الضرب تتقدم على معانقة سبيها، و هذا تصعيد شديد لمعاناة أهوال الدنيا و متاعبها، إمعانا في تقرير ما يزَهَّد فيها، و ذلك مفاد من تقديمه متعلق المسند في الجملتين " أمام الظفر بغنيمتها الاصطلاء بنار الحرب، قبل اعتناق سبيها[1] معانقة أبناء الطعن و الضرب " ، ثم جعله معاناة القتال شديدة قاسية ، فهي " اصطلاء نار الحرب " .

ثم ننظر إليه و قد جعل للحرب نارا، و أضافها إليها، و كأنها نار غير ما يعرفه الناس عن النار، نار خاصة بالحرب، ممتزجة بالرعب و الرهب، و الخوف و المعاناة و الألم، و لابد من اصطلاء تلك النار، حتى يصل من بعد ذلك إلى غنيمتها، و قبل التمتع بسبيها لابد من المغامرة و المخاطرة، بمعانقة أبناء الطعن و الضرب و هم الفوارس المغاوير، الذين بلغت دُربتهم في الطعن و الضرب مبلغ نسبة الأبناء لآبائهم، فهم " أبناء الطعن و الضرب "، و هي صورة واصفة لمعناها أدق وصف.

و الاصطلاء بنار الحرب استعارة تصريحية أبانت عن مدى شدة هذه الحرب الذي بلغ ألمها ألم من يحترق بالنار، و التي عرف بأنها نار الحرب المنتسبة إليها، و المصاحبة لها ... و هذا كله سيكون متقدما على الظفر بالغنيمة، و كذلك الأمر في التمتع بسبيها ، إذ هو مقدم عليه اعتناق

(١) سبيها: ما يسبى من النساء في الحرب يتخذونه رقيقا – لسان العرب مادة (سبى)

فوارس الحرب . و ما أجمل تلك المشاكلة بين اعتناق السبي و معانقة الفوارس ، و هذا الجناس بين المعانقة و الاعتناق ،

والاستعارة التصريحية التبعية في قوله " اعتناق أهل الطعن والضرب " وما فيه من معاني الاقتراب الشديد من فرسان المعركة وما يترتب على ذلك من مخاطرة.

وفي تسميته للفرسان بأنهم " أبناء الطعن والضرب " وما في ذلك من بيان مدى قوة وبسالة أولئك الذين ينازلهم والتي تعكس مدى قوته هو وشجاعته واستبساله.

و في قوله " أبناء الطعن و الضرب " جعل للطعن و الضرب أبناء على سبيل الاستعارة المكنية المصورة لتمرس هؤلاء على فنون الحرب حتى كأنهم أبناء الطعن و الضرب."

وبين " الحرب " و " الضرب " جناس ناقص وسجع، وكثيرا ما رأيت الجناس قد رافق السجع في مقامة الزهد هذه مع الحرص على توظيف هذه الألوان البيانية المتمازجة في إظهار المعاني وخدمتها بطبع خال من التكلف والصنعة.

القصة في مقامة الزهد:

لم يتخذ الزمخشري البيان القصصي ديدنا له كما هو الحال في مقامات بديع الزمان الهمذاني و مقامات الحريري ، و سائر المقامات ، فقد كانت القصة هناك هي مدار المقامة الذي تبنى و تدور عليه ، لكن هنا في مقامة الزهد للزمخشري لم تكن القصة هي الأداة الرئيسة التي تبرز المعاني التي تدور حولها المقامة ، و قد يكون السبب في ذلك أنه لم يكن لدى الزمخشري الفرصة للتسلية أو التسرية ، و إنما كان الجِدُ الخالصُ مميزا لمقاماته ، و لا سيما مقامة الزهد التي بين أيدينا ، فالقصة التي أوردها الزمخشري قصة واقعية هادفة ، يبتغي بها العبرة و الموعظة ، و قد استعمل الزمخشري البيان القصصي في إبراز صورة الدنيا ، و أنها لا تصفو لأحد ، ويدلل بهذه القصة على صدق قوله .. و هذه قصة واقعية حدثت للخليفة للمرواني ، و هو يزيد بن عبد الملك بن مروان ، و أنه اشترى جارية اسمها (حُبابة) بأربعة آلاف دينار ، و بلغ به الاستهتار

أنه لَهى بها عن تدبير الخلافة ، فكان لا يقعد للناس في الأيام إلا يوما واحدا ، فأصبح ذات يوم فقال " لأكذِّبَنَّ اليوم من قال :لا تصفو الدنيا لبشر يوما " ، فأمر فحُمِلت المفارش و الآلات إلى بستان له بظاهر الرصافة (موضع)، و فُرِشَ لـه حـول بِرْكَـةٍ هنـاك ، و اجتمـع مـن كـان يَسْتَأْنِسُ به من نُدَمَائِه ، و انطلقت (حُبَابَةُ) تضرب و تغني ، فاهتز على غنائها ، و طرب ، و صفَّق بيديه ، و قال : "أَطيرُ أطير " ، قالت له حُبَابة : فعلى مَن تدع الخلافة يا أمير المؤمنين ؟ قال : " عليك " ،... فبينا هم على ذلك إذ أخذت حُبابة حبة رمان ، فرمت بهـا في حلقهـا ، فغُصَّت بها ، و لفظت أنفاسها ، و كذَّب الله دعْوى يزيد ، و مات بعد أسبوع واحد . (١)

و ظاهرٌ أن هذه القصة الواقعية كانت مشتهرة بين الناس، يعرفها القاصي و الداني في عصر الزمخشري، لهذا ضَرَبَها الزمخشري مثلا للموعظة، فقال : " اذكر المَرْوَانِيَّ ، و مـا مُنِـي بـه مـن خُطَّةٍ على رأسه مَصْبُوبَةٍ ، حين غُصَّت بحَبَّةِ الرُّمَّان حُبَابَتُهُ المَحْبُوبَةُ "

لم يذكر الزمخشري من القصة غير هذا، اعتمادا عـلى شُـهْرَتِها بـين أهـل عصـره، فبمجـرد تذكيرهم بها يتذكرون أحداثها، ويأخذون العبرة منها. وفي قوله:" اذكر المـرواني " يخاطـب نفسه، وكل من يتلقى الخطاب.

و يُلحظُ أنه ذكر يزيد بن معاوية بلفظ : " المرواني " ينبئ بأن الزمخشري لم يكن يُحِبُّـه ، إذ هو في نظره ليس إلا " مرواني " أي منسوب لبني مروان ، ليس إلا . ، ثم ذكر من قصة هذا المرواني موجزَها ، و أنه " مُنِي بخُطَّةٍ على رأسه مَصْبُوبَةٍ " ، أي بمصيبة صُبَّت على رأسه ، و أن هذه الخُطة تتلخص في " حين غُصَّت بحَبَّة الرمان حُبابتُـة المحبوبـة " انظـر إلى الجنـاس الرائع في قوله " حَبَّة " " حُبَابَتُه " " المَحْبُوبَة " ، و ما في ذلك من إشارة إلى ولع يزيد بها ، فهذا التكرار لهذه الحروف (الحاء و الباء) التي تلح على معني الحب لصاحبته الذي ملأ عليه

(١) شرح مقامات الزمخشري ص ٣٥

قلبه ، و نسي به نفسه ، و نسي مسئوليته عن خلافته بسبب هذا الحب الطامس لرؤيته لحقائق الأمور .

كما نراه ذكر القصة من نهايتها، التي تحوي الخطة الطامة، التي أوقع نفسه فيها، وأن الدنيا مهما بلغت دَعَتُها، فإنها سرعان ما تتحول قاطعة فاجعة.

كما يلحظ أن الزمخشري اقتصر على سرد أحداث القصة في عبارة موجزة إيجازا شديدا اقتصر فيه على مناط العبرة و العظة، و لم تكن شخصياته سوى المرواني و حبابة و المكان بستان الخلافة، و لم يستمر الحوار عدة دقائق و كان بينه و بين (حبابة) و لم تزد الأحداث على ضرب حبابة بالعود، و أكلها الرمانة التي غُصَّت بها ثم موتها، و حزن المرواني على موتها إلى أن لحق بها بعد أيام قليلة، و هذا يعني أن الزمخشري لم يكن معنيا إلا بما من شأنه يؤكد المعنى الذي جعله عنوانا لمقامته، و هو الزهد.

ويستخلص الزمخشري العبرة من القصة بعد انتهائها، مستخدما حقيقة الموت الذي يجهز على كل حي، مهما كان عمره، ومهما كان غناه ودعته في الحياة الدنيا .... فإن الموت نهايته.

و نراه يصرح بهذا المعنى في عباراته التالية قائلا: " ثم هبها مُرَوَّقة المشارب، مُصَفقة من الشوائب ـ قد صفت لصاحبها كل لذة، و أصابته سحابة اللهو هاطلة مُرِذَّة ، أما يكفي تيقن المسرور بزوال ما هو فيه من السرور مُنَغِّصًا لسرورها ، و زاجرا للعاقل أن يلويَ على غرورها؟ "(١)

وهنا يفترض الزمخشري فرضا، يجادل به نفسه وسامعه، ليقطع عليه كل الآمال في الدنيا، وذلك بتقرير زوالها مهما تمتع بها صاحبها، يقول لو فرض كونها رائقة صافية، وانساق

(١) روق الشراب و صفقه: صفَّاه – المُرِذَّة: التي أتت بالرذاذ و هو المطر الخفيف – لا يلوي على شيء: لا يعرِّج عليه – أساس البلاغة للزمخشري - مادة (روق) و (صفق) و (رذذ)

صاحبها في لهوها الماطر، الذي يرذ حينا، ويهطل آخر، ثم يؤول الأمر كله إلى زوال، إذا كان الأمر على ذلك أَلَا يُنَغِّصُ هذا على المسرورِ سرورَه؟

نراه يستعمل الأمر " هب " الذي يعيد السامع إلى نفسه، ليقدح زناد فكره، ويتَيَقَّظُ من غفلته.

ويجانس بين " مروقة " و " مصفقة "، وهذا السجع بين " المشارب " و " الشوائب"، مما يضفي على المعني خفة لتتلقاه النفوس سهلا واضحا.

وهذا التوازن الدقيق بين الجملتين في البناء التركيبي يجعل المعنى يسرع إلى قلب السامع إسراع اللفظ إلى أذنيه.

كما أن تلك الكنايات التي تكون كدعوي الشيء بإقامة البينات عليه ، و ذلك في قوله : " صفت مشلربها " كناية عن صفة ، و هي التنعم و الدعة ، و في قوله صفقت من الشوائب ، و هي تأكيد للكناية الأولى ، و هي كناية عن صفة التنعم و الدعة أيضا ، و تعدد الكناية هنا كتعدد الأدلة و البينات على دعوى واحدة ليقررها و يؤكدها ، و الاستعارة في قوله : " و أصابته سحابة اللهو المرذة " فإضافته السحابة للَّهو استعارة تخييلية إذ جعل للَّهو سحابة مرذة ، و جعله للهو سحابة استعارة مكنية ، و في ذلك مهنى دقيق و هو أن اللهو مكثه قليل كقلة مكث السحابة في السماء .

ففي ذكره للسحاب إشارة إلى سرعة الانقشاع و التولي، و هذا بدوره يشير إلى سرعة زوال الحياة الدنيا بما فيها من نعيم مهما طال مكثه.

وما بين " لذة " و " مرذة " من السجع البديع ما يبين المعنى بيانا واضحا.

و هنا يمهد الزمخشري لتقديم النصح للسامع و لنفسه، بناء على ما قدم من مقدمات عقلية و عرفية، تترتب علها هذه النصائح التي يقول فيها الزمخشري، بادئا بتقرير الواقع الذي يعيشه أهل الدنيا، فيقول: " بلي إن نزل اللبيب على قضية لُبِّه، إن دعاه داعي الشهوة لم يلبه، و

هيهات: إن مدعو الهوى لمجيب، و إن سهم دعوة الداعي لمصيب "

الزمخشري هنا يريد أن يرجِعَ ذو اللب - وهو صاحب العقل السليم اليقظ - إلى لُبِّه، يُحَكِّمُه في أمر نفسه، حتى يفيء إلى صوابه.

و يبدأ كلامه بإجابة عن سؤال سبق أن طرحه على ذي العقل المعافى، و هو قوله:" أما يكفي تيقنُ المسرورِ بزوال ما هو فيه منغِّصا لسرورها ، و زاجرا للعاقل أن يلْويَ على غرورها " .

نراه قد فصل هذه الجملة عن سابقتها، لوقوعها جوابا لها، ولا يُعطَف الجوابُ على السؤال، فقال: " بلى "، أي أن ما سبق عين الصواب، بمعنى أن تيقن المسرور بزوال سروره كاف في أن يفسد عليه سروره، وينغِّصه عليه.

وزاد الأمر توكيدا، ببيان أهمية العقل الذي يحرك ويوقظ ويصفو، حتى يصير لُبا.

و تأتي الجملة الشرطية المصدرة ب " إن " التي تفيد الشك في تحقق ما دخلت عليه من الشرط، و التقليل من احتمالية وقوعه، و جملة الشرط " نزل اللبيب على قضية لُبِّه " ، فقد يكون المرء ذا لُب صاف ، و لكنه لا ينزل على ما يقتضيه لُبُّه ، هذا لقوة و سيطرة سلطان الهوى على نفسه.... لكنه في القليل إن نزل على قضية لُبه " إن دعاه داعي الشهوة لم يلبه " فكان جواب الشرط جملة شرطية ثانية، مؤكدة للجملة الشرطية الرئيسة.

وبعد هذا الشرط نراه يقرر استبعاده لتحقيق هذا الشرط ، أي أن قليلا جدا ممن يستطيعون النزول على قضية اللب ، وذلك لما يراه من قوة داعي الهوى .. يقول : " و هيهات ، إن مدعو الهوى لمجيب ، و إن سهم دعوة الداعي لمصيب " و "هيهات " بمعنى : بَعُد ، أي يستبعد أن ينزل المرء على قضية لُبِّه ، و هذه الكلمة اختصار لجملة كاملة تقديرها : (بَعُد أن يحدُث هذا) ، و تثير هذه الجملة تساؤلا تقديره (و لماذا لا يلجأ ذو اللب إلى لبه) هو يسأل عن سبب هذا الاستبعاد ، فتأتي الجملة بعدها : " إن مدعو الهوى لمجيب ، و إن سهم دعوة الداعي لمصيب " ، لأنها جواب عن السؤال المقدر، الذي أثاره معنى جملة " هيهات " ، و هذه العبارة مكونة

من جملتين خبريتين مؤكدتين و متوازنتين في البناء التركيبي ، و معطوف ثانيتهما على أولاهما ، لأجل التوسط بين الكمالين ، مع وجود الجامع ، ليقرر في هذه العبارة مدى قوة سلطان الهوي على أهل الدنيا ، الذين سماهم: " مدْعُو الهوى " و الذي أكد إجابته لدعوة الهوى ب (إن و اسمية الجملة و لام القسم) ، ليعرب عن تمكن هذا المعنى من نفسه هو أولا ، و تمكنه فيها ، ثم مواجهة إنكار من ينكر عليه ذلك .

وفي الجملة الثانية من هذه العبارة: " وإن سهم دعوة الداعي لمصيب "، نرى تصعيدا للمعنى، بتجسيده بمعاونة الاستعارة التمثيلية، في جعله داعي الهوى له سهم لا يخطئ رمِيَّتَه، حتى يمَكِّنَ المعنى من نفس المخاطب تمكينا شديدا.

وبين " مجيب " و " مصيب " سجع وجناس ناقص، يتآزران على تجلية المعنى وتحليته.

ويستثني الزمخشري من هذا الكم الهائل، الواقع تحت سلطان الهوى قليلا ممن أنجاهم الله تعالى بسبب تعلقهم بالله، واعتصامهم بحبله.

يقول: " اللهم إلا عبدا بحبل الله يعتصم، ويتمسك بعروته التي لا تنفصم " وهذا معناه أن القلة التي تعتصم بحبل الله تعالى هي القلة الناجية من سلطان الهوى، وفي ذلك اقتباس من قوله تعالى " واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا"من الآية ١٠٣ من سورة آل عمران

أي أنه لا نجاة من سلطان الهوى إلا لمن اعتصم بحبل الله تعالى، والاعتصام بحبل الله تعالى تعبير مجازي المراد به الاستمساك بدين الله تعالى.، وأيضا في التمسك بعروته التي لا تنفصم، كأنها إعادة لذات المعنى بلفظ آخر.

وبين " يعتصم "و" تنفصم " سجع اتزنت به الفاصلتان، مما ترك الأثر على المعنى في نفس المخاطب.

الشعر في مقامة الزهد:

لم يكن دأب الزمخشري في مقاماته أن يورد فيها شعرا، ويبدو أن قوة تأثُّرِه بما في هذه المقامة

من معان، وتشبع نفسه بهذا الموضوع ... هو الذي جعله يورد الشعر الذي يحمل من قوة الخاطر ما لم يتحمله التعبير بالنثر، ولكي يُفْرِغ ما في عقله من أفكار لا يقوم بها سوى الشعر أورد هذه الأبيات:

طوبى لعبدِ بحبل الله معتَصَمُهُ | على صراط سويٍّ ثابتٍ قدمُه[(١)]

رثِ اللباس جديدِ القلبِ مُستَتِرٍ | في الأرضِ مُشْتَهِرٌ فوقَ السما سِمُه[(٢)]

إذا العيون اجْتَلَتْهُ في بَذَاذَتِه | تعلو نواظرُها عنه و تَقْتَحِمُه[(٣)]

ما زال يستَحْقِرُ الدنيا بهمته | حتى تَرَقَّتْ إلى الأخرى هِمَمُه

فذاكَ أعظم من ذي التاجِ متَّكِئا | على النَّمارِقِ مُحْتَفًّا به حَشَمُه [(٤)]

و الواضح أن هذا من شعر الزمخشري نفسه، أفرغ فيه خلاصة نصحه لأصحاب الدنيا – و هو منهم – بألّا معين له على التزهد في الدنيا إلا الاعتصام بحبل الله ، و هذا وحده طريق النجاة .

نلحظ أن هذا الشعر من ذات المعين الذي نسج منه المقامات، فهو قريب الشبه بها من حيث البناء التركيبي، و التصوير البياني، و البديع، و هذا ما يقوي أنه من شعر الزمخشري نفسه، و ليس من شعر غيره .

يبدأ حديثه بقوله: " طوبي لعبد بحبل الله معتصمه " و كل هذا اقتباس من القرآن الكريم،

---

(١) طوبى: اسم شجرة في الجنة و تستعمل للدلالة على الفوز و الفلاح – القاموس المحيط: مادة (طوب)

(٢) السِم و بالكسر و السُّم بالضم: الاسم – أساس البلاغة للزمخشري مادة (وسم)

(٣) اجتلى الشيء إذا كأنما جلي عليه فاجتلاه – أساس البلاغة للزمخشري ، البذاذة: ترك التكلف في المطعم و الملبس ، نبت عنه العيون : إذا ارتفعت و علت عنه ، اقتحمته العيون : إذا جاوزته و لم تتعلق به ازدراء له – أساس البلاغة للزمخشري

(٤) مقامات الزمخشري – مصدر سابق – ص ٢٥٥

كما في قوله سبحانه: " الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩) " الرعد.، و هذا ما رأينا مثله في المقامة، و سوف نرى مزيدا من الاقتباسات في أبياته، سواء من القرآن الكريم، أم من السنة المطهرة.

كما نلحظ تقديم متعلق الخبر على المبتدأ في وصفه ل " عبد "، و هو قوله: " بحبل الله معتصمُه "، أي أنه لا معتصمَ له سوى حبل الله تعالى.

و المراد ب " حبل الله ": دينه – سبحانه –، عبر عنه بالحبل، على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية، التي صور فيها دين الله تعالى بالحبل الذي إن اعتصم به معتصم كتبت له النجاة، و قد ورد إطلاق الحبل على دين الله تعالى في القرآن الكريم حيث قال سبحانه: " وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا" من الآية ١٠٣ من سورة آل عمران

و كذا كلمة : " معتصمه " ، أي لا يعتمد إلا على دين الله تعالى ، و لا يعتمد على ما سواه ، و هو قصر طريقُهُ تقديم ما حقه التأخير ، أي أنه لا تأخذه زخارف الحياة الدنيا ، لأنها لا تملك عليه قلبه ، و إنما قلبه معلق بجزاء الله تعالى في الآخرة ، و كذا القصر في الشطرة الثانية ، في قوله : " على صراط سَوِيٍّ ثابتٍ قدمُه " أي أن قدمه ثابتة على طريق مستقيم ، و ليس على طريق آخر من طرق الدنيا ، إذ إنه الوحيد طريق النجاة ، و يُلحظ أن بناء الشطرة الثانية هو نفس بناء الشطرة الأولى ، من قصر طريقه التقديم في العبارتين ، و هو عين نفَس الزمخشري في بناء عبارات مقامته ، مما يؤكد أن هذا الشعر من شعره هو .

و ببناء قريب من هذا البناء تأتي الشطرة الثانية من البيت الأول " على صراط سوي ثابت قدمه " حيث قدم متعلق المسند " على صراط سوي " لإفادة القصر و العناية معا ، إذ إنهما لا يتدافعان ، و المعنى أن قدم هذا السالك لا تكون قدمه ثابتة إلا على صراط سوى ، و ليس على غيره ، و أن النجاة لا تكون إلا بذلك ، ز هذا المتعلق " على صراط سوي " متعلق بالخبر " ثابت " ، و قد تقدم هذا الخبر على المبتدأ المؤخر " قدمه "، و هذا تقديم لما حقه

مجلة كلية الدراسات الإسلامية

التأخير لإفادة العناية بالثبات على هذا الصراط السوي ، و إضافة القدم إلى الضمير (الهاء) الذي يعود إلى السالك للطريق حيث عبر بالجزء و هو القدم ،و هو يريد الكل ، على طريق المجاز المرسل بعلاقة الجزئية ، و قد خص القدم دون سائر الأجزاء لما للقدم من مزيد خصوصية ، فبها يكون الثبات ، و بها يكون السعي إلى العمل ، و بها أيضا يسير المرء إلى الطاعة أو إلى المعصية

ومن البديع الذي تحلى به هذا البيت هذا الترصيع الذي أشبه فيه عروض البيت ضربه " معتصمة " و " قدمه " وبينهما وشيجة معنوية، وهي أن ثبات القدم على الصراط السوي هذا ما يساعد على المعتصَم بحبل الله، أو أن ثبات القدم نتيجة للاعتصام بحبل الله تعالى.

والصراط هو الطريق، وثبات القدم عليه استعارة تمثيلية معناها الالتزام بمنهج الله تعالى.

وكذلك الحال في قوله: " بحبل الله معتصمه " هي استعارة تمثيلية مؤدية إلى ذات المعنى المفاد من " على صراط سوي ثابت قدمه.

ونلحظ تشابها في البناء، وفي البيان وفي البديع كما رأينا ذلك في مقالته في المقامة والتي تسبق الشعر مما يؤكد أن الشعر للزمخشري، يخرج من ذات المشكاة التي تخرج منها ذات عبارات المقامة.

وفي قوله: " رثُّ الثياب جديدُ القلب " أضاف الرثاثة إلى الثياب، وجعلها وصفا لهذا الزاهد، وهذا تعبير بطريق الكناية عن زهده الذي أدى به إلى الفقر الذي دل عليه رثاثة ثيابه، وبين " رث الثياب " و " جديد القلب " مقابلة بديعة بين رثاثة الظاهر وجِدَّة الباطن، وقد أظهرت تلك المقابلة مدى حرص الزمخشري على إظهار جِدَّة وسلامة القلب دون العناية بالمظهر، وإن كانت ثيابه رثَّة، لأن ذلك الأمر لا يعنيه

ويواصل الزمخشري وصفه للزاهد، وقد سلك إلى ذلك طريق القطع والاستئناف حيث حذف المسند إليه بغرض قطع الكلام فيخيل للسامع أنه سوف يأتي بحديث آخر فيتهيأ

للتلقي و يجدد نشاط نفسه و يشحذ همته ... فإذا بالشاعر يواصل الوصف عن ذات المسند إليه السابق أن تحدث عنه بغرض إضفاء قدر من الأهمية على الصفات التالية أكثر من الصفات السابقة، فقال:

رثُّ اللباس جديدُ القلب مستترٌ في الأرض مشتهرٌ فوق السما سِمُه

نرى صفات مقيدة بالإضافة في الشطرة الأولى، ولها بناء خاص بتقديم ما حقه التأخير في الشطرة الثانية.

يقول " رث اللباس " وهذا تعبير كنائي عن صفة الفقر والتواضع وعدم الزهو باللباس، كما هي عادة الأثرياء الذين يتبخترون ويفخرون بفراهة ثيابهم.

" جديد القلب " وهي الصفة الثانية المقيدة بالإضافة، وفيها مقابلة بين الرثاثة والجِدَّة، والقلب واللباس، إذ إن القلب مستتر واللباس ظاهر، وهذا يظهر بعضه بعضا إذ إن الضدَّ يظهر حسنَه الضدُ.

و أن العبرة ليست بجدة اللباس، و إنما بجدة القلب و قوته و حيويته، فالزاهد في نظر الزمخشري من يجمع بين تواضع المظهر الذي أفادته الكناية في قوله " رث اللباس " و بين التقوى التي أبانت عنها الكناية في قوله " جديد القلب " .

وفي قوله " جديد " إيحاء بأن الزاهد كلما تجدد له عارض من الدنيا جدد له واردا من التقوى.

والصفة الثالثة التي تزاوجت مع الصفة الرابعة قوله: " مستتر في الأرض " وهي صفة مقيدة أيضا، إلا أنها ليست مقيدة بالإضافة، وإنما مقيدة بالجار والمجرور المتعلق بالصفة، إذ إن الصفة " مستَتِرٌ " اسم فاعل، يعمل عمل الفعل، وفاعله مستتر تقديره هو، يعود على الزاهد، وقد تقيد هذا المسند – الذي يفيد الدوام والثبوت باسميته – بالمتعلق بعده: "في الأرض "، أي كناية عن كونه مغمورا، ليس من أصحاب الجاه، ولا الشهرة، أي أنه زاهد في الدنيا.

وفي قوله: " مشتهر فوق السما سِمُه " هي الصفة الرابعة، ومحطة الوصول الذي يبتغيه الزمخشري من البيت كله، وهي كناية عن تعلق الزاهد بالسماء، وسلوكه مسالك المتقين، التي تجعله " مشتهرا فوق السما سِمُه "، والتقدير (سِمُه – أي اسمه – فوق السماء)، فقدم المتعلق بالخبر المحذوف – وهو الظرف وما أضيف إليه – (فوق السما) على المبتدأ (سِمُه) ليفيد الاختصاص بمقامه العلى الذي هو ثمرة زهده في الدنيا. وهذا كنايه عن نسبة الفلاح والفوز إليه.

ويفصِّل الزمخشري ما أجمله في البيت السابق في قوله، " رث اللباس " بتقرير النتيجة المترتبة على كونه " رث اللباس "، وهي صرف الأنظار عنه، وعدم الاحتفال لوجوده، ولا الإعجاب به، وقد استعمل في البيان عن ذلك أسلوب الكناية عن صفة في قوله:

إذا العيون اجتلته في بذاذته   تعلو نواظرها عنه و تقتحمه(١)

هذا تفصيل وتفسير لما أجمله في البيت السابق: " رث اللباس "، وذلك بإيراد الدليل على رثاثة لباسه التي سببت صرف العيون عنه: " إذا اجتلته العيون في بذَاذَتِه تعلو نواظرها عنه وتقتحِمُه "

وقد كان البناء التركيبي لهذا البيت قائما على أسلوب الشرط المصدَّر ب " إذا " التي تدخل على الشرط المحقق الوقوع، الذي أفاد توكيد هذا الشرط، و هو أن العيون – و هـ و في تلك الحال " في بذاذته " – تنفر من منظره نفورا شديدا، فـ " تعلو نواظرها عنه و تقتحمه " تأنف من رثاثة ملبسه، و تقتحمه بنظرات الازدراء.

وفي قوله " اجتلته " معناه: النظر الفاحص الثاقب، الذي يتفرس ملبسه الرث، وقد وردت " العيون " جمعا لإفادة الكثرة، حيث جاء الجمع على (فُعُول)، وهو جمع تكسير، يفيد

(١) اجتلته: اجتلى الشيء إذا أبصره – البذاذة : ترك التكلف في الملبس و المطعم يقال رجل باذ الهيئة و بذها : غير متكلف في مطعم و لا ملبس – شرح مقامات الزمخشري ص ٣٦

كثرة العدد، أي أن أناسا كثيرين يقلبون أبصارهم فيه.

وفي التعبير بالعيون وإرادة أصحابها مجاز مرسل بعلاقة الجزئية، وهي العيون التي لها مزيد اختصاص بالاجتلاء والتفرس.

وقد جعل الحال ما يتعلق به الجار والمجرور " في بذاذته " ليصوره وكأن البذاذة قد أحاطت به من كل جانب، وكانت ظرفا له، وجملة " إذا اجتلته العيون في بذاذته " هي جملة الشرط المؤكد بوقوعه في معرض " إذا " أي أن اختراق العيون له – وهو في هذه الحال – كان أمرا واقعا مؤكدا.

و تبدأ جملة الجواب بقوله " تعلو نواظرها عنه و تقتحمه "، فجملة الجواب مبنية من حدثين: " تعلو نواظرها عنه "، و " تقتحمه " فالعيون تنظر إليه نظر تعالٍ و تكبر، فهي " تعلو نواظرها عنه "، و هذا معناه أن عيون الناس تتعالى نظراتها معرضة عنه، متعالية عليه، و الحدث الثاني هو " تقتحمه "، أي تنظر إليه نظر المتجرئ عليه، المستهتر به.

والجملتان خبريتان لفظا ومعنى، وقد عطفت ثانيتهما على أولاهما للتوسط بي الكمالين مع وجود الجامع، وقد بُنِيَ من الجملتين جوابَ الشرط المترتب على فعل الشرط، الواقع في طريق " إذا ".

هذا هو موقف أهل الدنيا من الزاهد، لا يهابونه، ولا يقدرونه، وإنما يقتحمونه بأعين الازدراء والاحتقار.

أما موقف الزاهد من الدنيا وأهلها فيسجله الزمخشري في قوله: " ما زال يستحقر الدنيا بهمته "، فهي استمرارية الزاهد في استحقار الدنيا وأهلها بهمته، فقوله: " ما زال " يفيد استمرار الحال التي كان ثابتا ومستمرا عليها الزاهد، وعبر بالمضارع " يستحقر " ليفيد تجدد استحقاره للدنيا وأهلها كلما تجدد له موقف من مواقف الدنيا وأهلها، مما يصده عن الآخرة.

والذي يعينه على استحقار الدنيا وأهلها هِمَّتُه العالية، التي تنبثق من قوة إيمانه.، يقول:

ما زال يستحقِرُ الدنيا بهِمَّتِه   حتى تَرَقَّت إلى الأُخرَى به هِمَمُه

فكما كان أهل الدنيا يستحقرون هذا الزاهد، فإن هذا الزاهد بدوره يستحقر الدنيا وأهلها بهمته.

فالزاهد في عقل الزمخشري له همة عالية تعينه على مداومة استحقار الدنيا وأهلها " ما زال يستحقر الدنيا بهمته "

و كانت نتيجة هذه الهمة العالية، التي جعلته يستحقر الدنيا بهمته حتى ترقت إلى الأخرى به همه، أي أن زهده و عزوفه عن الدنيا و أهلها ترقى به ذلك إلى بلوغ المكانة العليا في الآخرة، التي عبر عنها ب " الأخرى " ، و هي التي تكون مقابلة للدنيا ، و قد ساعد على ذلك الطباقُ بين " الدنيا " و " الأخرى "

ثم إن الذي ترقى به إلى الأخرى " همُه " فرد عجز البيت على وسطه " همته " ، ليبرز أثر الهمم في بلوغ الغايات ، و تحقيق الأهداف .

وفي ختام أبياته ومقامته يعطف بالفاء التي تفيد الترتيب والتعقيب، يعطف بها الجائزة المترتبة على هذا الزهد، وهذه الهمم العالية للزاهد ... ويبدأ بالإشارة للبعيد، الذي يفيد التعظيم، فيقول: " فذاك " أي هذه الهمم، ومعروف أن التعريف باسم الإشارة يفيد استحضار صورة المسند إليه، وكأنه ماثل شاهد يشار إليه. يقول الزمخشري:

فذاك أعظم من ذي التاج متكئا   على النمارق محتفا به حشَمُه

و بعد المسند إليه المعرف باسم الإشارة يأتي المسند أفعل تفضيل مصوغ من التعظيم "أعظم " ، ليفاضل بين حال الزاهد ذي الهمم العالية و أهل الدنيا ، و على رأسهم أصحاب التيجان ، أي الملوك و الحكام و الأمراء الذين عبر عنهم بقوله " فذاك أعظم من ذي التاج " ، و ليس المراد من تعبيره ب " ذي التاج " شخصا بعينه ، و إنما المراد جنس ذوي التيجان .

وقد وصف ذوي التيجان بأوصاف هي عكس أوصاف الزهاد، ففي الوقت الذي فيه

الزهاد ذوو همم عالية .... تراه يصف الملوك بأنهم متكئين على الأرائك، منعمين مخدومين من الحشم الملتفين حولهم.

فقوله " ذي التاج متكئا على الأرائك ملتفا به حشمه " فقوله: " ذي التاج " كناية عن الملك، و قوله: " متكئا على الأرائك " كناية عن التنعم و الرفاهية بملذات الحياة الدنيا"، و قوله: " ملتفا به حشمه " تعبير كنائي مصور و دال على مدى النعمة و الترف و الدعة لهؤلاء الملوك.

وفي قوله هذا إشارة من خفاء إلى أن عاقبة هذا الترف انهيار للهمم والقوى، والحضارات والدول، وإضافة إلى ذلك خسران الآخرة.

وبهذه الموازنة بين الزاهد ذي الهمم الذي " علا فوق السما سمه " وهذا المتكئ على أريكته " ملتفا به حشمه " يختتم الزمخشري شعره ومقامته.

خاتمة البحث

- انفرد الزمخشري – رحمه الله تعالى – في مقاماته بالوعظ والتوجيه والإرشاد، وقد بدأ في ذلك بنفسه بندائه لها بـ " يا أبا القاسم " التي هي كنيته هو.
- من أبرز مقامات الزمخشري مقامة الزهد التي بغضت الدنيا للمتعلقين بها بذكر زوالها مهما كان نعيمها.
- إن أقوي ما يعين على الزهد في الدنيا الاعتصام بدين الله تعالى وسلوك الصراط المستقيم.
- جاءت عباراته قصيرة ومتوسطة، ومتزاوجة كل عبارة جملتين متشابهتين في البناء التركيبي والتصوير البياني والبديع غير المتكلف وإنما الخادم للمعنى.
- استعان الزمخشري بالبيان القصصي الموجز غاية الإيجاز ويؤخذ عليه قصور فهم القصة على معاصريه الذين كانوا قريبي عهد بالقصة وأحداثها وأشخاصها، وقد أكمل هذا القصور بذكر ما طواه عنا من هذه القصة في شرحه هو لمقامته تلك.
- استعان الزمخشري بأبيات من الشعر في بيان موضوع مقامته كان قريبا من بناء وبيان وبديع مقامته مما أكد أن الشعر له وليس لأحد غيره.
- للزمخشري خمسون مقامة بمقامة الزهد بحاجة إلى دراسة موازنة مستقلة، وذلك لتفردها بخصوصيات تعبيرية ولغوية وتراكيب بلاغية وصور بيانية بحاجة إلى طول الوقوف عندها والنظر فيها لتمييز تلك الخصوصيات والإفادة منها.

المصادر والمراجع

١ -القرآن الكريم.

٢- أساس البلاغة – الزمخشري – تحقيق محمد باسل – دار الكتب العلمية - بيروت – ط الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٣- أسرار البلاغة المؤلف :أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ) قرأه وعلق عليه :محمود محمد شاكر الناشر :مطبعة الخانجي مصر

٤- الأنساب المؤلف :عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني المروزي، أبو سعد (المتوفى: ٥٦٢هـ) المحقق :عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وغيره الناشر :مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الطبعة :الأولى، ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢م.

٥- البديع المؤلف :أبو العباس، عبد الله بن محمد المعتز بالله ابن المتوكل ابن المعتصم ابن الرشيد العباسي (المتوفى: ٢٩٦هـ) شرحه وحققه: عرفان مطرجي الناشر :دار الجيل الطبعة :الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

٦- دلائل الإعجاز – عبد القاهر الجرجاني – تحيق محمود محمد شاكر – الخانجي بالقاهرة – ط ٥ – ٢٠٠٤م.

٧- دلالات التراكيب دراسة بلاغية. ٠المؤلف :د. محمد محمد أبو موسى القاهرة :مكتبة وهبة، الطبعة الثانية، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧م.

٨- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء المؤلف :أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي ثم القاهري (المتوفى: ٨٢١هـ) الناشر :دار الكتب العلمية، بيروت

٩- لسان العرب – ابن منظور – دار المعارف– مصر.

١٠ -معجم مقاييس اللغة المؤلف :أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين

(المتوفى: ٣٩٥هـ) المحقق :عبد السلام محمد هارون الناشر :دار الفكر عام النشر 1399 :هـ - ١٩٧٩م.

١١ -المعجم الوسيط – مجمع اللغة العربية- مكتبة الشروق الدولية – ط الرابعة – ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

١٢ - مقامات الزمخشري المؤلف :أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ) الناشر :المطبعة العباسية، شارع كلوت بك – مصر الطبعة :الأولى، ١٣١٢هـ